

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

الورد الثالث

في رحمة الهموم، حين يثقل القلب بما لا يُقال، وتضيق الصدور بما لا يُحتمل، لا ملجأ للعبد إلا ربه، ولا دواء أنفع من ذكره.

وقد جاءت النصوص النبوية تهدي التائب، وتُرشد المكروب إلى مواطن السكينة واليقين، ومن أعظمها ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ - كما أخرجه أحمد في مسنده -: "ما أصاب عبد هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك؛ سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي وغمي؛ إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحًا".

تأمل كيف انطوى هذا الحديث النبوي الجليل على أصولٍ من التوحيد، ومعارفٍ من العبودية، ومقاماتٍ من التذلل والانطراح بين يدي الله، فهو دعاءٌ يُبنى على التوحيد، ويُرفع على جناح الخضوع، ويُقدّم في ساعة انكسارٍ يحبها الله، فيتقبله الرب الرحيم، ويجعل فيه الفرج والبشرى.

إنه ذكرٌ عظيم، بدأ بإقرارٍ جليل، يُجري على لسان المكروب اعتناقًا لا يُطيقه إلا من عرف فقره، فيقول: (اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك) كلماتٌ تُبرز ذلَّ العبودية، وتُمام الافتقار، والإقرار التام بأن العبد وأبويه وأجداده - على امتداد النسب - مملوكون لله، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعًا، ولا يلوذون بسواه، ولا يجدون ملجأً إلا إليه.

ما إن يردّد العبد المكروب ذلك الدعاء من قلبٍ منيب؛ إلا أكرمه الله جلّ جلاله بجلاء كربه، ورفع ما أهّمّه، بل يزيده فضلًا وكرمًا بأن يُبدّل حزنه فرحًا، وضيقه سعة، ووجعه سكينة! كرم رباني لا يُجاري، وجودٌ إلهي لا يُضاهى.

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

يقول المسلم: (اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك)، بتذللٍ بين يدي ربه، وخضوع وإنابة، وامتنال لأمره واجتناب لنهيه، معلنًا دوام الافتقار واللجوء إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن قلبه معلقٌ به محبة وخوفًا ورجاء.

إنه اعترافٌ يُعلن به العبد أن ليس له ربٌّ سواه، ولا ملاذ له غير بابه، وأنه إن تركه مولاه ضاع، وإن خذله هلك، وإن وكله إلى نفسه كان أخسر الخاسرين.

ثم يقول بعد ذلك: (ناصيتي بيدك) فأنت المتصرف في يا الله، تصرفني كيف شئت، ولست أنا المتصرف في نفسي.

وألى يكون للعبد تصرف في نفسه؟ ونفسه بيد الله، وناصيته بيده، حتى قلبه بين إصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلأؤه كله إلى الله سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء.

فإن أقر العبد يقيناً بذلك، وأن نواصي العباد كلهم بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء؛ سكنت نفسه واطمأن قلبه، وهان عليه كل شيء، ولم يخفه بعد ذلك شيء، فلا يكون أمله ولا رجاؤه عند أحد من الناس، ولا يخاف أحداً منهم، ولا ينزلهم منزلة فوق عبوديتهم لله.

فيعرف أنهم عبيد مقهورون مربوبون لله الواحد القهار، فيستقيم توحيده وتوكله وعبوديته، وتهداً نفسه وتلين لقضائه.

ثم يقول العبد في هذا الذكر العظيم: (ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك) فيقرّ بإمضاء الله عز وجل لحكمه في عبده، ثم يحمده على ما أمضى عليه من حكمة وعدل، وهو سبحانه له الملك وله الحمد.

وهذا معنى قول نبي الله هود عليه السلام: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: 01]. أي: مع كون الله تبارك وتعالى مالكا قاهراً متصرفاً في عباده نواصيهم بيده؛ فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم؛ فهو جل جلاله على صراط مستقيم؛ في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فخير الله كله صدق، وأمره كله مصلحة، وقضاؤه كله عدل، همّاً كان أو فرجاً، عافيةً أو مرضاً، وما نهى عنه تعالى كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضلته ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وقضاء الله على عباده محمود من كل الوجوه؛ صحة كان أو سقماً، غنى كان أو فقراً، لذة أو ألماً، حياة أو موتاً.. فكل ما يقضي الله على عباده فهو عدل فيه.

ثم يتوسل العبد إلى ربه بأسمائه كلها فيقول (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) ما علمت منها يا رب وما لم أعلم، وهذا التوسل من أحب الوسائل إليه!

فالعلم بأسماء الله وصفاته أصل لكل العلوم؛ لأنه كلما كان العبد عظيم العلم والمعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته زادت خشيته لربه، وعظمت مراقبته وعبوديته له جلّ وعلا، وازداد بُعداً عن الوقوع في سخطه ومعصيته؛ ولهذا كان أعظم ما يطرد الهم والحزن والغم أن يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته، وأن يعمر قلبه بذكرها، والثناء بها عليه واستحضار معانيها.

وبعد أن قدّم العبد في هذا الذكر جملاً من الإقرار بالتذلل والخضوع لله تعالى؛ كان سؤاله (أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري) فإن الحزن والهم والغم يضاد حياة قلبي واستنارته؛ فأتوسل إليك يا رب وأسألك أن يكون ذهابها بالقرآن، ففيه نعيم القلب وأنسه ولذته، وبه سعادة الروح وراحتها وعافيتها، وبه الرضا والسكينة، وفيه من البركة والخير على النفس والبدن ما لا يعلمه إلا أنت!

وكل الهموم والأحزان إن ذهبت بالقرآن فإنها أخرى أن لا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد؛ فإنها تعود بذهاب ذلك.

فإذا صدق العبد في استعمال هذا الذكر على ما ورد عليه من هم وغم وحزن، أزال الله عنه داءه، وأعقبه خيراً وفرجاً.